مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية

اسم المقال: مشكلة الواقع الفائق عند جان يودريار
اسم الكاتب: د. سوزان إدريس
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/index.php/library/2853
تاريخ الاسترداد: 2026/11/02 12:31 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

مشكلة الواقع الفائق عند جان بودريار

د. سوزان إدريس*

الملخص

شهدت الحضارة المعاصرة تطورًا هائلًا في التكنولوجيا وفي تأثيرها في الإنسان والمجتمع، ولاسيما زيادة اعتماد الفرد على الآلة ومحاولته السيطرة على العالم بواسطتها، وذلك سعيًا منه لتكملة ما ينقصه من قدرات وإمكانيات لتحقيق التوافق بينه وبين الطبيعة والمجتمع.

لكن ازدياد التقدم والتطور التكنولوجي زاد من شعوره بالنقص تجاه الآلة والقلق والتشاؤم والعجز أمام هذه التطورات التي تفوق قدراته الذهنية التي خلقت كل أساليب الرفاهية العظمى التي لا يُستهان بها؛ لأنه على الرغم من فوائدها إلّا أنَّها فرضت على الإنسان ضغوطًا وتحدياتٍ كبرى أبرزها إلغاء الواقع الحقيقي لصالح واقع آخر حلّ بدلًا منه، لذلك اختلفت التحديدات الفلسفية ونظريات المعرفة في تناولها لمفهوم الحقيقة والواقع، ولاسيما تحليل بودريار له، فاليوم لم تعد فكرة الحقيقة هي مطابقة الفكر للواقع، وليست أيضًا موجودة في عالم مفارق، إنمَّا الحقيقة التي تثبت ذاتها في العالم المعاصر هي حقيقة العالم الافتراضي.

ناقش هذا البحث خطر الواقع الافتراضي في التأثير في قيم الأفراد ومبادئهم، وتغييب الواقع الحقيقي، إذ كان لابدّ من نقد هذا التأثير الخطير لها والتصدي له، من خلال إيضاح ميزاتها وأثرها في قيم الأفراد، فكان لابدَّ من التساؤل عن عوامل نشوئه وسماته وتأثيراته.

* جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم الفلسفة.

[1]- جان بودريار: فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي، ومعلق سياسي ومصوّر وشاعر، ولد في فرنسا من أصول ريفية في مدينة ريمس (reims) وتوفي في باريس، وهو من أبرز رواد ما بعد الحداثة، حصل على شهادة التخصص باللغة الألمانية، وقدّم أطروحة الدكتوراه بعنوان (نظام الأشياء) التي غدت في ما بعد أول مؤلفاته، التي تبعتها عدة مؤلفات ومقالات متعددة، وتسلّم الإدارة العلمية في جامعة باريس، ومع ذلك بقي مغموراً في فرنسا مدة طويلة في حين ذاع صيته في أمريكا وإيطاليا وبقية أنحاء العالم.

Jean Baudrillard and the problem of Super Reality

Dr. Suzan Idris**

Abstract

Modern civilization has seen a tremendous development in technology with its impact on man and society, especially in increasing the individual's dependence on machines and his attempt to control the world through them in order to supplement his shortage of abilities and capacities to achieve harmony between him, nature and society.

But the increase in progress and technological development increased man's sense of inadequacy, anxiety, pessimism and impotence towards machines, as he sees how these machines have exceeded his mental abilities and have provided maximum comfort and luxury not easy to ignore; yet they have imposed on man great pressures and major challenges, on top of which is eliminating the actual reality to replace it with another reality. Therefore, the philosophical conceptions and the theories of knowledge have differed in their approach to the concept of truth and reality, especially Baudrillard's analysis. Today, the idea of truth is no longer identical to the thought of reality, nor is it in a paradoxical world, The reality that is increasingly proving itself in this contemporary world is the reality of the virtual world.

This research discusses the danger of virtual reality in influencing the values and principles of individuals, and the absence of actual reality. The effects of virtual reality have to be criticized and addressed to clarify its advantages and disadvantages and its impact on individual values.

** Damascus University, College of Arts and Human Sciences, Department of Philosophy

المقدمة:

يشهد العصر الراهن تطورات متلاحقة ومتسارعة في مجال التكنولوجيا والثورة التقنية التي بات يسهل معها الحصول على المعلومات بأقصى سرعة، حتى أضحى هذا العصر يسمى بعصر المعلومات، بحيث تؤثر نتائجه في مجالات الحياة جميعها، وتعمل على إحداث تغييرات هائلة، أعادت من خلالها تشكيل مظاهر الحياة وقيمها؛ عملت على خلق بيئة افتراضية يتم تشكيلها بواسطة الحواسيب، تدعو الفرد إلى التعامل معها وكأنها عالم واقعي حقيقي.

لعلّ جان بودريار من أهم الفلاسفة الذين تناولوه بحثًا ونقدًا يدعوه "بالواقع الفائق Hyper reel" أو كما يسميه (مافوق واقعي)، والمقصود به هو ضياع مبدأ الواقع الحقيقي في متاهة الصور والمصطنعات الوهمية التي تروجها وسائل الإعلام والشابكة، التي غدت هي الواقع الحقيقي يسميه واقع فائق، أما الواقع الافتراضي فهو العالم التكنولوجي الرقمي بما فيه من تقنيات حديثة متطورة من خلال الشابكة ووسائل الميديا،[1] وبذلك يكون الواقع الفائق هو نتيجة انتشار ذلك العالم الافتراضي وهيمنته.

وهنا يبرز السؤال المحوري الذي يدور حوله البحث: ما مفهوم الواقع الفائق؟ وكيف تصدى بودريار لمعالجته وتحديد ماهيته وتأثيره في الواقع؟ وما درجات الاصطناع التي تميز الواقع الفائق، وتؤثر في خلق الواقعية المفرطة؟

وهذا مايضطلع البحث في محاولة الإجابة عنه، من خلال البحث في تأثير الواقع الفائق في حياة الأفراد، وكيف يعمل على الخلط بين الواقع الحقيقي والواقع المعلوماتي السيبراني "Cyberspace"

ولكن مع الإيجابيات والفوائد التي أنجزتها التكنولوجيا المعاصرة إلّا أنَّها لم تكن خيرًا محضًا، إنَّما أحدثت تغييرات سلبية في حياة الإنسان كان لابدّ من الوقوف على مدلولاتها وتحليلها.

كما تتجلى أهمية البحث في تسليط الضوء على تزايد هيمنة الواقع الافتراضي وممارسته السلطة على عقول الأفراد وعلى قيمهم في ظل المجتمع المعاصر، الذي يتفرد بودريار في تحليله لخطره وتأثيره في القيم والأخلاق ونشر العنف.

واعتمدنا في البحث على المنهج التحليلي لإيضاح معنى الواقع الفائق وأثره في الإنسان المعاصر، ونقد ما آلت إليه من آثار أخلاقية واجتماعية.

---

[1]- بودريار، جان: المصطنع والاصطناع، المقدمة، ص: 18.

أولًا: مفهوم الواقع الافتراضي "virtuel" عند جان بودريار:

الواقع الافتراضي نوع من الانغماس في بيئة افتراضية (virtualité) بهدف تحقيق التوهم بالوجود في زمن غير الزمن، وفي مكان غير المكان، وفي موقف يختلف كليًّا عن الموقف الذي يتكون به في الحياة الواقعية.

ولوسائل الإعلام والتكنولوجيا والشبكة العنكبوتية دور كبير في خلق الواقع الافتراضي، أو السيبراني أو المحاكي كما تورده بعض الترجمات؛ بحيث لم يعد للواقع أي حضور بقدر ما أصبح الافتراضي أكثر حضورًا وأكثر قابلية للتصديق والثقة، وتتلاعب وسائل الإعلام بالأخبار ولا تقصد بذلك تشويهها، وقتل الواقع، إنَّما تهدف إلى خلق واقع جديد بسيط، أكثر مصداقية يوهمنا بواقعيته فيغدو هو الواقع ذاته.

وهنا ينتقل الواقع من بيئته التقليدية التي كان يتميز بها، إلى منطق جديد يتميز به الوجود المعاصر، وهو العالم الافتراضي.

ولا يعدّ الواقع الافتراضي صورة مشوّهة للواقع إنَّما هو نسف له، يخلّصه من الهالة التي كان يحظى بها، وتتلاشى هيمنته بفعل التدخل المفاجئ للعالم الافتراضي الذي أصبح يحظى بالحقيقة والثقة، فالواقع الافتراضي يؤثر سلبًا في الوجود البشري ويعرّض وجوده لأزمات ومِحَن، ففي هذا العالم المصطنع يغيب الجسد وتتلاشى حدود المكان الواقعي وتفصيلاته، ولا يعود هناك أهمية للمكان ولا للأشخاص الذي يتعامل معهم افتراضيًا؛ الأمر الذي يفصله ويعزله عن واقعه وعن المحيطين به واقعيًا، ليعيش في عالم افتراضي.

ويرفض جان بودريار النظر إلى العالم الافتراضي على أنه عالم خيالي؛ لأنه يتغلغل في مجالات الحياة كلها، ويؤثر في سلوك الأفراد ويستمد مقولاته من الواقع الحقيقي، ومن ثمّ يتجاوزه إلى الحدّ الذي يغدو بذاته الواقع الحقيقي، وينتج أساليب حياة مختلفة ومغايرة لما كان متعارفًا عليه في الواقع، فيتحول إلى نماذج وقوالب تحرّك الواقع وتؤثر فيه بفضل الأبجديات الرقمية الافتراضية.[1]

وهنا يتبيّن كيف يغدو الواقع الافتراضي نسخة مزيفة ومصطنعة عن العالم الواقعي، ولكنه أكثر قابلية للتصديق.

وهذا ما يوضّحه جان بودريار بقوله: "**لا ينبغي النظر إلى الافتراضي والواقعي كشيئين متعارضين أو كقطبين متناقضين، فالافتراضي هو بالفعل أكثر واقعية من الواقعي ذاته**"[2]

---

[1] حرب، علي: العالم ومأزقه، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2002، ص: 110.

[2] بودريار، جان: الفكر الجذري، تر: منير الحجوجي وأحمد القصوار، ط1، دار توبقال، المغرب، 2006، ص: 78.

وهذا يوضّح أن العالم الافتراضي ماهو إلا نسخة مصطنعة عن العالم الواقعي، ولكنه أكثر جذبًا للأفراد، وأكثر قابلية للتصديق؛ لهذا يتحول إلى واقع أكثر واقعية من الواقع ذاته الذي كان بحياة الفرد، لكنه يتميز عنه باعتماده على منجزات التقنية المعاصرة والمتطورة، ويضم مجموعة من الرموز والعلامات التي تخلو من المعنى، وتنفصل عن الواقع الذي كانت تنتمي إليه.

ويعيش الإنسان مندمجًا مع هذا العالم الافتراضي؛ إذ إنَّه في أثناء هذا التواصل وفي ظل ضياع الهوية التي يتيحها الإنترنت، يحدث إقحامًا للآخر في عقولنا؛ وكأن عقله قد اندمج مع عقلنا؛ وكأننا نقرأ رسائله بأصواتنا ونقصد بها ما تقصده عقولنا، ونسمع أصوات الآخرين، وكأن صوتهم مدمج في دماغنا، وكأن أصواتهم تخرج منها، وفي بعض الأحيان قد يصبح التواصل أكثر حميمية بحيث يصنع العقل صورة ذهنية متخيلة لهذا الكائن الإنترنتي (افتراضي عرفناه عبر الشابكة)... وكيف يبدو وكيف يتصرف؟ تتبع مفردات ورتوش هذه الصورة الذهنية المتخيلة من دواخل نفوسنا.

ويصف جان بودريار هذا العالم الافتراضي بأنَّه سطحي وزائف بلا مضمون أو أصل؛ لأنَّه يخضع للأتمتة والبرمجيات، وهو بهذا يسعى إلى محو الواقع وإلغائه. وعن هذا يقول جان بودريار: "**من زاوية الافتراضي، المجال الواقعي ليس إلا أثر، ليس إلا جثة مرجعية**"[1]

وعليه فإن الواقع الحقيقي الذي يحيا به الفرد حياته اليومية قد بدأت أسسه تنهار تبعًا لسيطرة الافتراضي.

كما أن الواقعي يمثّل النقص والجزئي والمعيب، فقد تلاشى بفعل هيمنة الافتراضي، كما يمثّل الافتراضي نسخة للأصل، وهو مجرد انعكاس وإعادة إنتاج، ولكنه نسخة رديئة عن الواقع لا تمثّله تمثيلًا أصيلًا، فهو سطحي وزخرفي لا يحتوي على أي صفة جوهرية، وهو ثانوي وتكميلي دون انتماء أو أصل؛ لذلك يعدّ مجرد تقليد باهت للواقع الحقيقي؛ أي مجرد محاكاة، ينزع عن الواقع صفة الحقيقة والواقعية، وبذلك يتم التخلي عن الواقعي.[2]

يمضي جان بودريار إلى التأكيد أن العالم الواقعي لم يعد له ظهور أو أهمية بسبب هيمنة العالم الافتراضي وتسارع انتشاره حتى أعلن عن اختفاء الواقع وانهياره، الأمر الذي دعاه إلى بحث إشكالية موت الواقع.

---

[1]- بودريار، جان: التبادل المستحيل، تر: جلال بدلة، ط1، دار معابر للنشر والتوزيع، دمشق، 2013، ص: 55.

[2]- كرانغ، مايك؛ وآخرون: الجغرافيات الافتراضية، تر: عدنان حسن، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2011، ص: 421-423.

ثانيًا: عوامل نشوء العالم الافتراضي:

لوسائل الإعلام المتطورة وكذلك التقنيات التكنولوجية والإنترنت دور كبير في خلق العالم الافتراضي بسبب تأثيرها الكبير في حياة الفرد وقيمه، التي تعزله عن واقعه الحقيقي وتمارس عليه نوعًا من الإغواء (la séducation)[1] والافتتان بما تعرضه وتنتجه.

وللصورة التي تبثها وسائل الإعلام المختلفة دور خطير وبالغ الأهمية في زعزعة القيم الأصلية لدى الفرد، بوصفها وسائل تتبع إيديولوجيات محددة تُستهلَك من قبل المشاهدين بطريقة نمطية تجذبهم وتبهرهم إلى الحدّ الذي ينعدم لدى الفرد القدرة على النقد والتحليل، والتمييز بين ما هو حقيقي وما هو مضاف ومفبرك؛ ممَّا يولّد لديه نوعًا من الاستلاب الفردي.[2]

وفي ظل الواقع الافتراضي يصعب التمييز بين ما هو خيالي، وما هو حقيقي؛ لأنَّه يحلّ مكان الواقع الحقيقي، ويسلب الإنسان هويته؛ يقول جان بودريار في ذلك: "**مانعاني منه ليس نقصًا في الواقع ولكنه إفراط في الواقع والاتصال وإنتاج المعلومات**"[3].

ويهدف جان بودريار من ذلك توضيح دور الإعلام في خلق رموز بديلة عن الواقع، يتعرف الإنسان من خلالها إلى الواقع، الأمر الذي ينتج عالمًا افتراضيًا يستقي منه جلّ خبراته ومعلوماته ومفاهيمه، ولكن تكمن المشكلة في أنَّه لا يمكن التأكد من صدقه وحقيقته، بل أكثر من ذلك يغدو هو الواقع القابل للتصديق، بحيث يستقلّ عن واقعه الحقيقي، فلم يعد يشير إلى أصل أو مرجع محدد؛ ممَّا يؤدي إلى زعزعة الثقة به والانفصال عنه، وحلول واقع افتراضي بديلٍ عنه تقوم وسائل الإعلام بتعزيز وجوده وهيمنته.

وبذلك يعتمد الواقع الافتراضي على سيل المعلومات الذي تقدمه الصورة؛ إذ تسعى التكنولوجيا المعلوماتية إلى الحلول مكان الواقع، والعمل على إزالته وتلاشيه، فتغدو مفاهيم الافتراضي والتصور مفاهيمَ مناقضةً تمامًا للمجسّد والمشخّص والحقيقي، بل تدفعها إلى التهميش والعدم.[4]

وقد تفتتح وسائل الإعلام عصر التصنّع الذي يدمّر المرجعيات والأصل كلّها، ثمَّ يصطنعها من جديد في نسق من العلامات والرموز ضمن قوالب جاهزة تعبّر عن الواقع لكن تعبيرًا مزيفًا ومشوّهًا، حتى يغدو هذا الواقع سطحيًا بلا عمق ولا محتوى.

---

[1]- بوعزيزي، محسن: ثقافة الشبح، مجلة للفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، بيروت- باريس، العدد(132-133)، 2005، ص: 135.

[2]- بوعزيزي، محسن: ثقافة الشبح، ص: 139.

[3]- بودريار، جان: الفكر الجذري، ص: 79.

[4]- صفدي، مطاع: فجاءة الفلسفة، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، بيروت- باريس، العدد(158- 159)، 2012، ص: 8.

وهذا يشير إلى موت الأصل وانهيار المرجعيات والحكايات الكبرى التي كان يتحدث عنها فرانسوا ليوتار، وهنا يكمن الواقع الافتراضي المصطنع بوصفه أداة للتضليل والتمويه، واقع من دون أصل أو مرجع.[1]

وتهيمن الصورة على أوجه حياة الإنسان ونشاطاته واهتماماته كلّها، بحيث ترسخ الوعي الزائف بالزمن وتحوّل البشر إلى سيمولاكر Simulacre أي (مصطنعات)؛ أي نُسخ مستهلكة للأوهام والخيالات، وتعمل على نشر قيم السوق والاستهلاك، ويقتصر إدراك الفرد على ما يشاهده فقط من مشاهد بصرية، ولكنها صور خادعة وشبحية تخدّر وعيه ويغدو كالمتلقي السلبي المفتون بما يعرض عليه، وكأنَّها هي الحقيقة والواقع الصادق، لاغيةً بذلك الواقع الحقيقي، لتأسره ضمن واقع آخر افتراضي، لا يمتلك القدرة على نقده أو تحليله الزمني فـ"**لم يعد لا الخبر ولا الصورة في قبضة مبدأ الحقيقة والواقع**"[2]

وبهذا تحلّ الصورة محل الواقع، فالواقع يجري استهلاكه ونسيانه لصالح واقع آخر افتراضي يبدو هو الحقيقي الذي يسلب الفرد ويمتلك كل المصداقية.

ويحلل جان بودريار الواقع الفائق الذي تخلقه وسائل الإعلام، من خلال الحروب التي لم يتمكن فيها الفرد من الحصول على المعلومات والأخبار إلَّا من خلال القنوات الفضائية الإعلامية المتعددة، لهذا لم يكن من الممكن معرفة حقيقة ما يجري على أرض الواقع مباشرةً إلَّا من خلالها، فأصبحت حدثًا مميزًا للتلاعب الإعلامي.[3]

ويؤكد بأنها حروب لم تحدث واقعيًا ولم تكن حروبًا استراتيجية حقيقية إنَّما حدثت افتراضيًا، بمعنى أنها خضعت للتزييف الإعلامي؛ أي قامت تلك الوسائل بتضخيم الحدث وبث صور مفبركة لكي تظهر بأنَّها حقيقية، ممَّا جعل من الصعب على المشاهد التمييز بين ما هو حقيقي واقعي وبين ما هو مزيف؛ لذلك فهي برأيه تنتمي إلى واقع افتراضي تم تزييفه والتلاعب به.

وعن ذلك يقول بودريار: "**لقد تمّ تضخيم الحرب في وسائل الإعلام وتم سحبها من الذاكرة**"[4]

ولذلك يرى أن هذه الحرب وهمية تغيب عنها أسس الحرب الحقيقية، مع أنَّها حدثت فعليًا على أرض الواقع، تشهد عليها أعداد الضحايا وآثار الدمار الهائلة، فكانت تخضع لآلة

---

[1]- الزين، محمد شوقي: تأويلات وتفكيكات، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2002، ص: 211.

[2]- بودريار، جان: الفكر الجذري، ص: 47.

[3]- نوريس، كريستوفر: نظرية لا نقدية: ما بعد الحداثة، المثقفون، وحرب الخليج، تر: عابد اسماعيل، ط1، دار الكنوز الأدبية، بيروت، 1999، ص: 13-15.

[4]- بودريار، جان: الفكر الجذري، ص: 43.

عملاقة ووسائل إعلامية فائقة القدرة على صناعة الوهم وتسويقه تبعًا لإيديولوجيات وسياسات معينة، تنقل الفرد إلى الحياة ضمن واقع فائق يصعب فيه التمييز بين الخيال والحقيقة.

وللتكنولوجيا دور في خلق هذا الواقع الافتراضي، فهي مع الوسائل المتطورة التي تحلّ كثيرًا من المشكلات وتسهم في التطور إلّا أنَّها تساعد على تحويل الوجود الإنساني الواقعي إلى وجود عدمي بلا قيم، بحيث تتحكم به المنظومات الرقمية والمفاهيم والرموز التي تفرضها التقنية الحديثة، وتعمل على تدمير الوجود بقيمه ومفاهيمه وتحوّله إلى مجموعة من النظم الرقمية والعلامات، وهو بهذا إنَّما يستبدل بالواقع آخر افتراضيًا[1].

هل يؤثر الواقع الافتراضي بكل ما حققته التكنولوجيا من تقدم أن تسلب الإنسان هويته الواقعية وتعمل على تغييرها؟

ويعبّر جان بودريار عن ذلك بقوله: "**الإنترنت يجعلني موضع تفكير، والمجال الافتراضي يجعلني موضع تفكير، تتوه نسخة عني على طول الشبكات، المكان الذي لن ألاقيها فيه من جديد على الإطلاق.**"[2]

هذا ما تسعى إليه التقنيات المتطورة ولاسيما الشبكة المعلوماتية، من سلب الفرد لهويته واغترابه عن ذاته أولًا، ثم اغترابه عن الآخرين، عندما يتعامل مع أشخاص مجهولين افتراضيين؛ ولأنَّ التقنيات والتكنولوجيا تتغلغل في نشاطات الأفراد، ولاسيما مع انتشار الإنترنت وهيمنته على حياة الفرد، هذا أدى إلى عزلته شيئًا فشيئًا عن الآخر، وعمل على خلخلة عمليات التواصل الاجتماعي الواقعية، وأن تستبدلَ بها علاقات افتراضية تتم عبر شاشات الحاسوب[3]، من خلال الشبكة العنكبوتية بين أطرافٍ افتراضيين؛ ممَّا أدَّى إلى شعور الفرد باغترابه عن واقعه الحقيقي والهروب إلى عالمٍ آخر افتراضي يعده ملاذًا له يهرب فيه من قسوة الواقع وينشئ له أصدقاء افتراضين يتعامل معهم بحرية، فضلًا عن الفائدة التي يتلقاتها من التكنولوجيا في مساعدته على حفظ البيانات ضمن ذواكر اصطناعية تجعله يفقد الثقة بذكائه شيئًا فشيئًا، ويثق أكثر بهذا العالم الافتراضي، ويقول جان بودريار: "**عندما يحدث كل شيء بين أطراف تفاعلية على شاشة التواصل، يصبح الآخر وظيفة من دون فائدة**"[4].

---

[1]- أدهم، سامي: الواحد–الهوية– الفرد: ثقافة التكنولوجيا، مجلة كتابات معاصرة، الناشرون لتوزيع المطبوعات والصحف، بيروت، العدد(86)، مجلد(22)، 2012، ص: 12.

[2]- بودريار، جان: التبادل المستحيل، ص: 26.

[3]- أدهم، سامي: الواحد–الهوية– الفرد: ثقافة التكنولوجيا، ص: 14.

[4]- المصدر السابق، ص: 35.

وهذا ما يبعده عن الأفراد الحقيقيين بحيث يمكنه الاستعاضة عنهم بآخرين لايسببون له أزمات ومشكلات، ويستطيع بلحظة وبنقرة زر كمبيوترية أن يحذف أصدقاءه الافتراضيين، فهنا يغدو التعامل تعاملًا جامدًا لا أخلاقيًا، ولا يراعي القيم والمعايير الاجتماعية.

ومنه يستنتج بأنَّ العالم الافتراضي الذي خلقته تقنيات التكنولوجيا الحديثة فضلًا عن وسائل الإعلام المتطورة، إنَّما أفضى إلى خلق واقع افتراضي، يختلف في بنيته عن الواقع الحقيقي.

ثالثًا: الواقع الفائق والاصطناع "SIMULATION":

ساد الجدل في مفهوم الواقع مع الفلاسفة منذ القدم مع الفيلسوف هيرقليطس الذي تحدث عن التغير والصيرورة بوصفها أساس الوجود، ثم تطور مع أفلاطون في تحليله لأسطورة الكهف، وفيما بعد امتد في العصر الحديث مع هيجل ونيتشه اللذين كان لهما أثر كبير في أفكار بودريار.

1- مفهوم الواقع الفائق عند بودريار:

جاء إعلان جان بودريار عن موت الواقع بوصفه إعلانًا عن خلخلة التصور التقليدي للواقع الذي تؤثر به وسائل الإعلام والتقنيات المعاصرة والمتطورة بدرجة كبيرة، وتؤثر في موته، وفي صناعة واقع آخر مجتثّ من أصوله، لا مرجع له ولا هوية، فهو عبارة عن نماذج مصطنعة من الواقع الحقيقي، ولكنها نماذج مشوّهة ينفعل معها الفرد وكأنه الواقع الحقيقي الذي يمارس عليه كل وسائل الإغواء والإيهام، وهو ما يسميه جان بودريار الواقع الفائق.

ويستخدم جان بودريار لفظ (SIMULATION) ليعبّر عن هذا الواقع المصطنع الذي يقابله في اللغة العربية لفظ الاصطناع والتصنّع والتمويه والإيهام.... بحسب اختلاف الترجمات وتحليلات المفكرين له، الذي يعدّ مفهومًا أساسيًا لفهم ألغاز أطروحة موت الواقع البودريارية.[1]

ولأجل فهم هذا الواقع يستشهد جان بودريار بقصة خريطة الإمبراطور بورخيس للروائي غورغي؛ التي يفتتح بها مؤلفه المهم المعنون بـ (المصطنع والاصطناع)، ويعدّها أفضل قصة تحاكي هذا التصنّع وتعبّر عنه بطريقة ساخرة، ويدور ملخص هذه القصة بأن إمبراطورًا أمر بصنع خريطة مفصلة لإمبراطوريته بحيث تغطي كل تفاصيلها بدقة متناهية، فكانت النتيجة أن جاءت الخريطة بقدر مساحة الإمبراطورية كلها تمامًا، بحيث

[1]- زيادة، رضوان: معنى الحقيقة في خطاب ما بعد الحداثة، مجلة يتفكرون، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، المغرب، العدد(3)، 2014، ص: 107.

يمكنها أن تحلّ محل الأرض وتغدو نسخة شبيهة لها، وكأنها هي الحقيقية، بحيث ينمحي الاختلاف بين الخريطة والأصل، ولكن مع انهيار الإمبراطورية (الأرض) بدأت الخريطة تتمزق وتتلاشي تدريجيًا، تمزقت الخريطة وتحللت؛ وذلك لا يعود إلى الخريطة ولكن إلى تحلل الأرض وتلاشي الواقع، بسبب تحوّل هذا الواقع إلى واقع فائق مصطنع ومفبرك، وهذا يعني أن موت الواقع الذي يتحدث عنه جان بودريار لا يقصد به موته انطولوجيًا وبشكل مطلق إنما موت تصور معين عنه، ذلك التصور العقلاني الموضوعي، الأمر الذي يستدعي تغيير طريقة تحليل هذا الواقع تغييرًا مختلفًا عمَّا سبقه.

لذلك يقارب جان بودريار بين هذه القصة، ويبيّن المجتمعات الغربية الحديثة التي تهيمن عليها التكنولوجيا والعالم الافتراضي، الذي يتعاظم فيها دور وسائل الإعلام المختلفة، بحيث يغدو الواقع منمنمًا مصغّرًا لا يعبر عن واقع حقيقي موجود، إنَّما عن أفكار مختلفة عنه، أي عبارة عن نسخ وهمية وزائفة تقوم على التضليل والتزييف، وتدمّر كل معقولية كانت تفسّر الواقع فيما سبق، كما أنَّها تعمل على إلغاء الأصل والمرجعية التي كانت تُنسب إليها، وتحافظ فقط على النسخ والنماذج المصطنعة والعلامات.[1]

وهذا الأمر ينتج عنه خلق عصر التصنّع، الذي يتحول فيه الواقع إلى واقع فائق منفصل عن الواقع الأصلي، تعمل التقنيات الإعلامية والتكنولوجية على توليده وفبركته.

ويقول جان بودريار في ذلك: "**يتم إنتاج الواقع انطلاقًا من خلايا مصغّرة، ومن قوالب وذاكرات... إنه فوق- واقع (hyperréel)...وليس المقصود محاكاة ولا تكرارًا، ولا حتى مسخرة. بل المقصود أن يستبدل بالواقع رموز عنه**"[2]

وهنا يتضح كيف يقوم الواقع الفائق باستبدال الواقع الحقيقي بنسخ مصغّرة تدلّ عليه، ولكنها مشوّهة مزيفة تقوم على التضليل والإيهام؛ إذ يخفي الواقع ويعمل على تلاشيه لصالح واقع آخر مصطنع.

من أجل تسليط الضوء على مفهوم الاصطناع في محاولة لفهمه وتحليله يعمد جان بودريار إلى عقد مقارنات بين عدة مفاهيم؛ مثل: الإخفاء والتظاهر؛ فالإخفاء (dissimulation) هو أداة ادعاء الإنسان بأنه لا يملك شيئًا موجودًا لديه في الأصل، فالإنسان يخفي أمرًا يملكه، أي لا يخفي العدم؛ لذلك نخفي ما هو موجود لدى الفرد بالأصل.[3]

---

[1]- الزين، محمد شوقي: تأويلات وتفكيكات، ص: 212-213.

[2]- بودريار، جان: المصطنع والاصطناع، ص: 46-47.

[3]- زيادة، رضوان: معنى الحقيقة في خطاب ما بعد الحداثة، مجلة يتفكرون، ص: 106.

أمَّا التظاهر (simulation) فهو ادعاء الإنسان امتلاكه لأشياء لم تكن موجودة لديه في الأصل ويدعي باستمرار امتلاكه؛ لذلك فإن مرجعيته هي الغياب، وذلك لأن موضوعاته التي يبحث فيها ليست حقيقية غير موجودة بل غائبة بل مفبركة زائفة ومصطنعة، في حين أن مرجعية الإخفاء هي الحضور؛ لأنَّ موضوعاته حاضرة موجودة وطبيعية غير اصطناعية، فهو لا يغير من الواقع شيئًا؛ لذلك فهو مجرد ادّعاء، و"**الإخفاء هو التظاهر بعدم امتلاك ما نملك، بينما الاصطناع هو التظاهر بامتلاك ما لا نملك. الأول مرجعيته الحضور، في حين أن الغياب مرجعية الثاني، ولكن الأمر أكثر تعقيدًا**"[1]

أمَّا التصنّع على النقيض فيحاول تشويه الواقع وتغيير مبادئه ومقولاته ويصعب فيه التمييز بين الحقيقي والزائف وبين الواقعي والخيالي لذلك يسعى دومًا إلى التضليل والتشويه.

ولكن جان بودريار لا يقصد أن الاصطناع هو التظاهر بالشكل البسيط بل مختلفٌ عنه، ويضرب على ذلك مثالًا عن اصطناع المرض؛ بحيث يستطيع من يتظاهر بالمرض أن يستلقي بالسرير ويوهم الآخرين بمرضه، ولكن من يصطنع المرض فإنَّه يعمل على إيجاد بعض أعراض ذلك المرض وتعيينها.[2]

وبهذا فإن كلًا من الإخفاء والتظاهر والادّعاء لا تعبّر عن حقيقة الاصطناع؛ لأنَّها تخدع الآخرين بقناع مزيف من التظاهر أو الإخفاء، ولا يؤدي إلى خلخلة مفهوم الواقع؛ بحيث يبقى الواقع سليمًا غير مشوّه، أمَّا في حالة الاصطناع فإن الأمر مختلف؛ لأنَّ الواقع يتشوّه وتتمزق مبادئه بسببه، فهو يعمل على زلزلة الواقع وفقدان التناقضات والثنائيات والمعنى؛ مما يتركه هشًّا تضيع فيه القدرة على التمييز بين الصدق والكذب وبين الواقعي والخيالي،... ومن ثمَّ فإنَّ الاصطناع موجّه في الأصل ضد مبادئ الواقع، ويقوم في أساسه على التضليل والتشويه.

ومن خلال تأكيد النظرة اللايقينية والمترددة للعالم، نجد تقاربًا بين فكرة جان بودريار وجاك دريدا؛ إذ يؤكد الثاني الطابع اللايقيني للعالم، الذي يختلف عن عصر الحداثة الذي كان للواقع حينها معنى واضح، وكذلك كان للمفاهيم الأخرى كالخيال والحقيقة والزيف... معانٍ قائمة بذاتها، لكنها انهارت فيما بعد في عصر ما بعد الحداثة، في ظل غياب المعنى عن العالم وموت الواقع وتحلله.[3] وكذلك يؤكد جان بودريار لايقينية العالم

---

[1]- بودريار، جان: المصطنع والاصطناع، ص: 47-48.

[2]- سعد، حيدش: جان بودريار- الاتصال وإشكالية الواقع المفرط، مجلة إضافات (المجلة العربية لعلم الاجتماع) مركز دراسات الوحدة العربية، العددان (29-30)، 2015، ص: 206.

[3]- الزين، محمد شوقي: تأويلات وتفكيكات، ص: 213-214.

وتلاشي الواقع، وحلول واقع آخر مصطنع بديلٍ عنه، وهنا يتبين اتفاق كلٍ من فيلسوفنا مع دريدا، وتأكيدهما لايقينة العالم، وعدم الوصول إلى الحقيقة، بسبب موت الواقع وغياب المعنى منه، وهذا ما يعبّر عنه جان بودريار بقوله: "**استراتيجية التصنّع هي جعل الواقع والوهم شيئًا واحدًا.**"[1]

2- التصنع والمحاكاة*:

ويتضح من هذا التحليل والمثال السابق الذي يضربه جان بودريار في تحليل مفهوم الاصطناع كيف أن المصطنع لا يمكن التعامل معه وفق تحديد معين؛ إذ يصعب معرفة كونه صادقًا أم كاذبًا، مزيفًا أم حقيقيًا؛ لذلك يمكن القول: إن الواقع بعدما أصبح مزيفًا ومفبركًا فإنه يفقد ومن ثمَّ معناه ويصبح عصيًا على الفهم.

ويرى جان بودريار كما أشرنا سابقًا أن عملية قتل الواقع وإلغاء الوهم والخيال هي بمنزلة الجريمة الكاملة (على حدّ قوله)، وهي الجريمة الأخطر بنظره؛ لأنها تؤدي إلى إلغاء التمايزات والاختلافات، وتؤكد التصغير والنمنمة والنمطية.. وهذا كله إنَّما يعدّ خلطًا للثنائيات والأقطاب التي كانت قائمة بين الذات والموضوع، وبين الحقيقي والزائف، وكذلك خلطًا للمفاهيم والمصطلحات.[2]

ولأنَّ استراتيجية التصنّع تقوم على التضليل والتزييف؛ لأنَّها تفقد القدرة على التمييز بين الجيد والسيئ، وبين القبيح والجميل.. فهذا ما دعا جان بودريار إلى نقد الفن المعاصر الذي تحوّل في عصر الاصطناع إلى آلة للتضليل؛ بمعنى أنه يحوّل المبتذل والسطحي إلى قيمة عليا؛ لأنَّه يعترف بالتفاهة والسطحية ويعدّها متعة جمالية، تغيب فيها القدرة على التمييز بن القبيح والجميل، فـ "**تحويل الابتذالية والسطحية والتفاهة إلى استراتيجية بقاء... والاعتراف بالتفاهة والسطحية ثم تحويلهما إلى قيمة أساسية واعتبارهما متعة جمالية.**"[3]

لذلك يصف جان بودريار الفن المعاصر بأنَّه فن تافه؛ بمعنى أنَّ القيمة الجمالية قد انهارت فهو لم يعد ينتج قيمًا ومعانيَ جمالية، بل مصطنعة وسطحية، حلّ فيها الرديء والهامشي بوصفه بديلًا عن الواقع الذي كان يحوي قيمًا جمالية راقية، وغدا الواقع

---

[1]- بودريار، جان: الفكر الجذري، ص: 40.

* التصنع (simulation) والاصطناع مرادف لكلمة محاكاة، يستخدمها بودريار ليدلَّ على أنَّها مفرزات الواقع الفائق ويعني به أنَّ المصطنع يخفي الأصل ويعمل على إنتاج أفكار جديدة مستنسخة لا علاقة لها بالأصل، وهذه المصطلحات حسب ترجمة جوزيف عبد الله لكتاب بودريار المعنون بـ (المصطنع والاصطناع).

[2]- الزين، محمد شوقي: تأويلات وتفكيكات، ص: 212- 213.

[3]- بودريار، جان: الفكر الجذري، ص: 33.

المصطنع عالم الفن المعاصر الرديء والمبتذل الذي تبرز فيه سمة السخرية كسمة بارزة يتواطأ فيها الفنان مع الجماهير التي تنخدع بكل ما يُعرض عليها من فنون سطحية ليس لها أي قيمة فنية، يقول جان بودريار عن ذلك:

"the work of art becomes on with fashion, advertising"- "وظيفة الفن تتماشى مع الموضة والإعلانات."[1]

ولا يقتصر تأثير مجال الاصطناع في الفن فقط، إنَّما يتعدّى ذلك إلى ميدان السياسة والأخلاق، فالسياسة لم تعد تعتمد على الإيديولوجيا بقدر ما دخلت في عالم الاصطناع، عالم الإيهام والتضليل، بحيث يصبح من الصعب التمييز بين الاتجاهات السياسية (بين اليساري واليميني مثلًا)[2]؛ لأن التصنّع قد هدم تلك الحدود وحلّ مكان الإيديولوجيا.

هذا بالنسبة إلى السياسة أمَّا بالنسبة إلى تأثيره في مجال الأخلاق فقد أصبحت مصطنعة أيضًا؛ بمعنى صعوبة العثور على مقياس أو معيار أخلاقي محدد أو ضوابط أخلاقية نهائية تستطيع التمييز بين الأشياء أو الحدود.

وهكذا يمكن الاستنتاج بوضوح كيف أثّر عالم الاصطناع في انهيار مفاهيم الواقع ومبادئه التي كان يعمل تبعًا لها، والتي كانت تقوم وفق مبدأ القيمة الذي يقوم على العلاقة بين الدال والمدلول، أمَّا اليوم وفي عالم التصنّع الافتراضي فقد تغيرت هذه المبادئ والمفاهيم، وانقلب النظام إلى فوضى، وحلّ الواقع الفائق مكان الواقع الحقيقي، الأمر الذي جعل التضليل واللايقين يسود الواقع ويزعزع الثوابت والقيم التي كانت قائمة فيما سبق.[3]

ويمارس الاصطناع استراتيجية خاصة به تقوم على التضليل والإغواء تهدف إلى خلق الفوضى والاضطراب لدى الأفراد، وذلك من خلال اتباعه سياسة الافتتان بهذا الواقع المصطنع المفبرك الذي احتكر كل المصداقية والاهتمام، وهنا يمارس الموضوع (الواقع المصطنع) لعبة الإغواء والإغراء على الذات، فـ" **إذا كانت الذات سابقًا تؤثر في عالم الموضوع، فإن الموضوع اليوم يؤثر في عالم الذات.**"[4]

وهذا ما يُقصد به الافتتان بواقع غير حقيقي يستغل كل أساليب الجذب والإغواء، وكأنه يمارس سحرًا وجاذبية عليه، معتمدًا في ذلك على تقنيات وسائل الإعلام كلّها بما فيها من تحريف وجذب وغواية.

1- Baudrillard. J: Fatal strategies, translated: Philippe Beitchman, Wilishire Blvd, Los Angeles, 2007, P: 148.

2- أوعبيشه، علي: مفهوم الواقع بين ستيفن هوكينغ وجان بودريار، http://anfasse.org/2010-12-30

3- سعد، حيدش: جان بودريار- الاتصال وإشكالية الواقع المفرط، مجلة إضافات، ص: 200.

4- بودريار، جان: التبادل المستحيل، ص: 36.

ولكي يوضّح جان بودريار فكرة الاصطناع يضرب مثالًا آخر عن ديزني لاند (Disney land) وهي نموذج لكل الأشكال المحاكية أو المصطنعة؛ إذ يرى أنَّها مدينة تقوم على الخداع والتزييف، وإيهام الناس بأنَّها هي العالم الحقيقي تجذبهم بصورها وتبهرهم بأشكالها الفنية المزيفة، ويرى أنَّ هذه المدينة ليس المقصود منها تصوير الواقع تصويرًا مغلوطًا به وتزييفه، إنَّما هو إخفاء حقيقة وجود عالم حقيقي خارج حدود هذه المدينة.[1]

وهل يعني هذا أن الغرض الذي أُنشِئَتْ لأجله المدينة هو إخفاء تعويض النقص والضعف الذي بات يشوب العالم الحقيقي المتمثل بقوة أمريكا؟

وعن هذا يقول: "**يجري تقديم ديزنيلاند كأنَّها خيالية لدفع الناس إلى الاعتقاد أنَّ الباقي واقعي... المقصود إخفاء حقيقة أن الواقع ليس واقعًا، ومن ثمَّ إنقاذ مبدأ وجود الواقع**"[2]

وهنا لا يقصد جان بودريار أنَّ هذه المدينة حقيقية أو زائفة، إنَّما هي مدينة وآلة للتضليل والإخفاء، إنَّها تعمل على التأكيد بوجود الواقع، وكأنَّها إنقاذ له من الانهيار، وذلك لتخفي حقيقة أنَّ الطفولة هي في كل مكان، وليست محصورة بين ثنايا هذه المدينة فقط.

ويقصد جان بودريار من هذا المثال أن يقارب بين هذه المدينة وبين أمريكا، فهي بنظره أفضل تعبيرًا عن الواقع الأمريكي دون أن تعبّر عن تفاصيله، إنَّما تقوم على فكرة أساسية هي أنَّ هذه المدينة إنَّما تمثّل طفولة الكبار الذين ينخدعون بالتقنيات المبهرة والخادعة بالصور الخيالية فيها لتخفي عنهم طفولتهم الواقعية، وهذا ما تهدف أمريكا إلى تأكيده بأنَّها هي العالم الحقيقي المكتمل في حين بقية الشعوب ما هي إلا ضعف ووهم.[3]

وهنا تدليل على أن هدف هذه المدينة ليس الترفيه والتسلية، بقدر ما يهدف إلى إيهام البشر بأنَّ أمريكا تمثل العالم الحقيقي والأقوى والأفضل، في حين هذه المدينة هي شكل مصغر عنها؛ وعنه يقول جان بودريار: "**إنَّ المظهر الموضوعي لأمريكا يرتسم في كل مكان في ديزنيلاند.... مديحًا للقيم الأمريكية... يجري تقديم ديزنيلاند كأنَّها خيالية لدفع الناس إلى الاعتقاد أن الباقي واقعي... إن تخيل ديزنيلاند ليس حقيقيًا ولا هو مزيف، بل هو آلة تعمية غرضها إعادة توليد وهم الواقع**"[4]

---

[1] عبد الحميد، شاكر: عصر الصورة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد(311)، 2005، ص: 132.

[2] بودريار، جان: المصطنع والاصطناع، ص: 61.

[3] بروكر، بيتر: الحداثة وما بعد الحداثة، تر: عبد الوهاب علوب، منشورات المجمع الثقافي، الإمارات، 1995، ص: 242- 243.

[4] بودريار، جان: المصطنع والاصطناع، ص: 60-61.

وهنا يتضح نقد جان بودريار لهذا الواقع المصطنع المتمثّل بهذه المدينة الخيالية المسحورة، التي تمثّل في الحقيقة بنظره نموذجًا مصغّرًا من أمريكا، ومن قيمها وأفكارها، ومن ثمَّ يهدف جان بودريار إلى التأكيد بأنَّ عالم الاصطناع (عالم الواقع الفائق) يقوم على التصغير وعلى النماذج المقلوبة؛ ولهذا الاصطناع الذي خلقه العالم الافتراضي عدة درجات ومراحل صنّفها بودريار وميّز بينها

ثالثًا: درجات المصطنع (نماذج المحاكاة):

يضع جان بودريار تصورًا للمراحل التي يمر بها المصطنع حتى وصل إلى مرحلته النهائية في شكل واقع فائق، فيبدأ بالمرحلة الأولى (مرحلة ما قبل الثورة الصناعية): إذ يكون مصطنع طبيعي أساسه الصورة ويقوم على تقليد الواقع ليس كما هو إنَّما يدخل عليه تغييرات ويقوم بتزويره، ولكنه مع ذلك يبقى منسجمًا معه، يسعى إلى الرقي به نحو درجة المثالية، وهذه المرحلة إنَّما تمثّل مرحلة التزوير وقد بدأت مع النهضة الأوربية مع اكتشاف قيمة ودلالة محاكاة الطبيعة، يقول جان بودريار: "**مصطنع طبيعي،.. منسجم وتفاؤلي، يستهدف إعادة الطبيعة على صورة الله أو تأسيسها المثالي**".[1]

وهذه الدرجة من الاصطناع تمثّل العالم في عصر ما قبل الصناعة الذي يحاول خلق عالم مثالي؛ لذلك يصفه بالوضع المسرحي الذي يسيطر فيه الوهم والخيال.

أما المرحلة الثانية للاصطناع (مرحلة الثورة الصناعية) فيسميها: المصطنع المنتج: الذي يتمثل بسيطرة الآلة وما تقدّمه من قوة وطاقة وإنتاج في زمن العولمة، التي تسعى إلى تقليص المسافة بين الواقع والخيال، بحيث يُسقَطُ الإنتاج الواقعي من خلال الآلة المتطورة[2]. وهنا تفقد العلامات قدرتها على الإشارة إلى الطبيعة بل تقتصر على الإنتاج البشري من آلة وطاقة وعمل فني وصناعي، "**مصطنع منتج، يقوم على الطاقة والقوة وتجسيدها بالآلة**"[3]

وهنا يصف جان بودريار هذه المرحلة بمرحلة الإنتاج اللامحدود التي تعتمد على التقنيات المتطورة والآلات، وينتج عنها تراجع لمفهوم الواقع وإدخال الخيال معه ليكون امتدادًا للآلة والإنتاج، لهذا يصف هذه المرحلة بالمرحلة الصناعية التي تنتج الطاقة وتعتمد على الآلة.

---

[1]- بودريار، جان: المصطنع والاصطناع، ص: 195.

[2]- شوقي الزين، محمد: استراتيجيا السيمولاكر، مجلة كتابات معاصرة، الناشرون لتوزيع المطبوعات والصحف، بيروت، العدد(37)، المجلد(10)، 1999، ص: 6.

[3]- المصدر السابق، ص: 195.

أمَّا المرحلة الثالثة (ما بعد الثورة الصناعية، مرحلة الثورة التكنولوجية) فهي تمثّل مرحلة ما بعد التصنيع ويسميها مصطنع الاصطناع: الذي يقوم على الشيفرة والنموذج، ويعتمد في جوهره على التقنيات التكنولوجية الرقمية في مجال شبكة المعلومات الالكترونية، ومجال الإنترنت من أجل التحكم في الواقع بمجالاته كلّها، فـ "**لم يعد من وجود للواقعي ولا للخيالي إلَّا بحدود ضيقة... والحال فبدل نظام المصطنَع النظير للآخر، ثمة اتجاه نحو ابتلاع هذه المسافة**"[1]

وهنا يستنتج جان بودريار كيف تختفي المسافة بين الواقعي والخيالي إلى درجة الانعدام والتلاشي، لكي يحلّ محلها النموذج والعلامة، فالمحاكاة والاصطناع لم يعد يحاكي شيئًا محددًا في الواقع، إنَّما بات هو الذي يتحكم بالواقع.[2]

فالواقع حلّ مكانه عالم من الصور المحاكية التي تتحكم بها الشيفرات والرموز، ولكنَّها مجرد نسخ ناتجة عن إعادة إنتاج الأشياء والأحداث، ولكن بطريقة مزيفة في ظل غياب القيم التي كانت سابقًا، وساعد على ذلك تراكم العلامات والرموز.

وفي هذه المرحلة يمكن استنتاج دور التكنولوجيا في خلق التصنّع (النسخ المزيفة والافتراضية)، الذي يعمل على قطع الصلة بين الحدث والواقع فيتركه بلا مرجع ولا أصل ودون جذور ينتمي إليها[3]

كما يخلق نماذج تتحكم بالحدث وبالواقع، وفي هذه النماذج تتلاشى الأسباب والعلل وتفقد ارتباطها بالنتائج وتخلق أحداثًا افتراضية، فينتقل الحدث من الواقع إلى الخيال، ومن الحقيقي إلى الزائف.

وبسبب تلاشي إمكانية التمييز بين الحقيقي والزائف، ينقد هذا العالم الافتراضي بأنَّه بلا معنى ويخلو من القيم، وأنَّ كل ما يعرض فيه من أحداث ستكون زائفة ووهمية ومفبركة، وهنا يقول جان بودريار عن ذلك: "**انتهت العلاقة المثالية بين المفهوم والواقع؛ إذ تمت مجاوزتها تحت ضغط تقني ومعرفي هائل لصالح استقلالية الافتراضي الذي تخلّص من الواقع وانطوى على ذاته ... لقد تحول الواقع إلى... وهم جذري**"[4]

وهذا يؤكد دور التكنولوجيا في صناعة عالم فائق افتراضي يغيّر مفهوم الواقع إلى حدّ تلاشيه، ويقوم على النماذج والرموز، لهذا يسميه بالوضع الرقمي الذي يفصل الواقع عن أصله.

---

[1]- المصدر السابق، ص: 196.
[2]- الزين، محمد شوقي: تأويلات وتفكيكات، ص: 215- 216.
[3]- صفدي، مطاع: فجاءة الفلسفة، ص: 8.
[4]- بودريار، جان: الفكر الجذري، ص: 14.

ويتضح من خلال المراحل التي يمرّ بها الاصطناع كيف تدرجت مراحله من مرحلة كانت الصور والنماذج فيها نسخة طبق الأصل عن الواقع تتمثل في فنون الصنعة الطبيعية التي تخدع العين والإحساس بالرهبة، ثم تحولت إلى سلسلة من الصور والعلامات بفضل الثورة التقنية الصناعية، ثمّ انتهت في المرحلة الثالثة في العالم المعاصر عصر الرقميات والإنترنت والإعلام إلى نوع من الاصطناع أو المحاكاة التي تقوم بتشكيل العالم، وتؤسس لنشوء واقع آخر هو الواقع الفائق المفرط في واقعيته على حد قول جان بودريار.

رابعًا: الواقعية المفرطة:

يتدرّج جان بودريار في نظرية موت الواقع في مؤلفه (الجريمة الكاملة)* الذي كان يقصد به نقصًا في مفهوم الواقع إلى أطروحته عن موت الواقع التي يثبت فيها أن الواقع لم يتلاشَ إنَّما أصبح مفرطًا في واقعيته؛ بمعنى أنَّه يحمل في ثناياه كل شيء؛ كل الاختلافات والتمايزات، وكل من كان لا ينتمي له من أحلام وأوهام ويوتوبيا[1].

ويعزو جان بودريار سبب ذلك إلى نشأة العالم الافتراضي بفعل التطور التكنولوجي الهائل الذي طرح مفهومًا آخر للواقع يغدو معه الواقع الفائق أكثر واقعية من الواقع الحقيقي ذاته، بسبب قابليته للتصديق وجذبه للأفراد وتحقيقه لكل ما يريده الفرد، وهذا ما يسميه جان بودريار بالواقعية المفرطة.[2]

وينتهي جان بودريار إلى تأكيد تلاشي مفهوم الواقع الحقيقي، الأمر الذي يدعوه إلى التساؤل عن نهاية هذا الإنسان ككائن واقعي: "**هل هي نهاية الإنسان ككائن واقعي؟ حتى نجيب... بالإمكان القول: إننَّا أصبحنا واقعيين أكثر فأكثر، بل من قدرٍ زائد ومبالغ فيه من الواقع**"[3] وهذا يعني أن الواقع لم يمت موتًا مطلقًا، إنَّما هو توسيع لمفهوم الواقع ليشمل الوهم والزيف والافتراضي.

وذلك إنَّما يفضي إلى نتيجة تتمثل بأنَّ الواقع قد اتسعت دائرته ليشمل كل ما كان غريبًا عنه، وكل ما كان يُعزَلُ سابقًا من أحلام ويوتوبيا وأوهام.. وذلك بفعل تأثير التكنولوجيا ووسائل الإعلام ومفاهيم العالم الافتراضي، إلى الحدّ الذي يجعل الواقع

* من مؤلفات بودريار التي لم تترجم بعد، ونظراً لصعوبة الحصول عليه بنسخته الأجنبية اعتمدنا على ورد عن هذا الكتاب في مقالات الباحثين عن بودريار.

[1]- محمد، بدر الدين مصطفى أحمد: من المحاكاة إلى الواقع الفائق قراءة في فكر جان بودريار، ص: 39.

[2]- المرجع السابق، ص: 42.

[3]- بودريار، جان: الفكر الجذري، ص: 78.

مفرطًا في واقعيته، فهو يهدم حدود الواقع ليشمل أضداده ويجمعها بشكل منسجم ومترابط، تُلغى فيه التناقضات والاختلافات بين الحقيقي والزائف.[1] بحيث تبدو الصور كلّها التي تنقلها وسائل الإعلام وشاشات التلفزة هي صور واقعية، مع أنَّها نسخ عن الواقع إلّا أنَّها حلت محله وغدت أكثر واقعية منه، وهنا يمكن إيضاح فكرة موت الواقع بوضوح بأنها تعني واقعًا مفرطًا في واقعيته، بحيث لا يوجد شيء خارج الواقع.

ويرى بودريار أنَّ ما رفع من شأن الصورة في العصر الحالي هو أنَّها غدت وسيطًا مهمًا من وسائط المعرفة، ونتيجة هذه المكانة لها غُيِّبَ الواقع وتوارى خلف عالم الصور؛ حيث انكمش الواقع وتضاءل حجمه وبات صورة شاحبة، ثم تلاشت ولم يعد لها وجود.[2]

وهكذا أصبحنا نعيش في عالم مليء بالصور غير ذات الأصل، صور معلقة في فضاء خاص بها، أصبح يحتل الفضاء نفسه الذي كان للواقع الحقيقي.

وبذلك يشير جان بودريار إلى التحقق الافتراضي للعالم؛ أي الإفراط في الواقعية، فرط التحقق؛ أي إنَّ العالم سينمو وينمو وحينها يتم تجريده من الحيوية، وذات يوم سيكون كل شيء واقعيًا، ويصبح الواقعي شاملًا، وهذا هو الموت، موت الواقع.[3]

وهذا يعطي أطروحة جان بودريار عن موت الواقع تساؤلات كثيرة، حتى ليراها بعض المحللين أنَّها تمثل ثورة في الفلسفة، من حيث أنَّها قد بينت أن العالم لامجال للفصل فيه بين الواقع والخيال، والحقيقة والوهم.. فكل شيء أصبح واقعيًا، "**لقد أصبحنا عائمين في عالم يقيني أحادي خالٍ كليًا من الضدية. إنَّه عالم الافتراضي**".[4]

ويقصد من قوله هذا أنه بات خاليًا من الثنائيات التي كانت موجودة سابقًا، وبات الحقيقي وهميًا في الوقت نفسه، لصعوبة التأكد منه، ويبرز بذلك الواقع الافتراضي على أنَّه مجرد تمثيل للواقع ولكنه مشوّه وناقص؛ إذ يفتقر للآخر والاختلاف والغيرية.

ولأنَّ الواقع قد مات، فقد انهارت معه القيم الأخلاقية كلّها، وازداد انتشار العنف بأشكاله ووسائله المتطورة كلّها، الأمر الذي يستدعي الدعوة إلى حلّ أخلاقي للخروج من هذه الحالة العنفية، بتأكيد المطلب الأخلاقي المتمثل باللاعنف، وزرع ثقافة التسامح والحوار وتقبل رأي الآخر مع أنَّه مختلف.

---

[1] زيادة، رضوان: معنى الحقيقة في خطاب ما بعد الحداثة، مجلة يتفكرون، ص: 107.
[2] محمد، بدر الدين مصطفى أحمد: من المحاكاة إلى الواقع الفائق قراءة في فكر جان بودريار، ص: 45.
[3] كرانغ، مايك؛ وآخرون: الجغرافيات الافتراضية، ص: 43- 44.
[4] بودريار، جان: الفكر الجذري، ص: 78.

الخاتمة:

ومن خلال عرض إشكالية الواقع الافتراضي يظهر تميّز بودريار في حديثه عن موت الواقع بأنَّه لا يقصد موته أنطولوجيًا، إنَّما يعني موت تصور معين عنه، ذلك التصور التقليدي العقلاني؛ ممَّا يستدعي تغيير طريقة تحليل الواقع.

ومن خلال عرض هذه الإشكالية يتضح الأثر العميق الذي تقوم به هذه الأطروحة في خلق الواقع الفائق، الذي ينقل الفكر من التفكير بالواقع الحقيقي إلى خلق أفكار افتراضية تؤثر في تفكير الفرد وفي قيمه.

وبذلك تبرز جِدّة بودريار في حديثه عن الواقع الفائق الذي تخلقه التكنولوجيا ووسائل الإعلام، الذي يتحول فيه الفرد إلى علامة أو رمز تضيع فيه هوية الإنسان الحقيقية، بحيث يعمل العالم الافتراضي على القضاء على العلاقات الاجتماعية الحقيقية بين الأفراد، فيتحول إلى كائن انعزالي منفصل عن محيطه الاجتماعي، وبالمقابل يتواصل مع أفراد افتراضيين بطريقة جامدة تخلو من أي مشاعر إنسانية أو روابط اجتماعية، وبذلك يعيش الفرد عالمًا وهميًا، يعاني فيه حالة من القلق الوجودي.

وبذلك يمكن تصنيف فكر بودريار بأنَّه جذري؛ يحاول خلخلة مفاهيم الواقع والمعنى والقيم، وتدمير أسس الواقع والثوابت المعرفية السائدة، فهو ليس فكرًا نقديًا؛ لأنَّ الفكر النقدي يقوم على الاعتراف بوجود الواقع في حين بودريار ينطلق من الإيمان بموت تصور معين عنه.

وهذه النتائج إنَّما تؤكد ضرورة تصدي الإنسان لهذا العالم الافتراضي الذي تسيطر فيه التقنيات التكنولوجية على الفكر والحياة، وأن يمتلكَ حسًّا نقديًا لخفايا ذلك الواقع الافتراضي ليقاوم مفرزاته كلّها من عنف وإدمان معلوماتي الذي يعمل على تسييد القيم الوهمية الافتراضية بديلًا للواقع الحقيقي.

ويمكن أن يعدّ بحث سلطة الواقع الفائق عند فيلسوفنا بحثًا جديرًا بالاهتمام لما له من تأثير عظيم في قيم الأفراد وسلوكهم وقيمهم الأخلاقية، في محاولة للكشف عن النواحي الخفية فيها، في سبيل تنمية الوعي لتجاوزها.

المصادر والمراجع:

المصادر:

1. بودريار، جان: التبادل المستحيل، تر: جلال بدلة، ط1، دار معابر للنشر والتوزيع، دمشق، 2013.

2. بودريار، جان: الفكر الجذري، تر: منير الحجوجي، وأحمد القصوار، ط1، دار توبقال، المغرب، 2006.

3. بودريار، جان: المصطنع والاصطناع، تر: جوزيف عبد الله، ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2008م.

4. Baudrillard. J: Fatal strategies, translated: Philippe Beitchman, Wilishire Blvd, Los Angeles, 2007.

المراجع:

1. زيادة، رضوان: معنى الحقيقة في خطاب ما بعد الحداثة، مجلة يتفكرون، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، المغرب، العدد(3)، 2014م.

2. أدهم، سامي: الواحد– الهوية– الفرد: ثقافة التكنولوجيا، مجلة كتابات معاصرة، الناشرون لتوزيع المطبوعات والصحف، العدد(86)، مجلد(22)، بيروت، 2012م.

3. أوعبيشه، علي: مفهوم الواقع بين ستيفن هوكينغ وجان بودريار، http://anfasse.org/2010-12-30

4. بروكر، بيتر: الحداثة وما بعد الحداثة، تر: عبد الوهاب علوب، ط1، منشورات المجمع الثقافي، الإمارات، 1995م.

5. بوعزيزي، محسن: ثقافة الشبح، مجلة للفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، بيروت– باريس، العدد(132–133)، 2005م.

6. حرب، علي: العالم ومأزقه، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2002م.

7. الزين، محمد شوقي: استراتيجيا السيمولاكر، مجلة كتابات معاصرة، الناشرون لتوزيع المطبوعات والصحف، بيروت، العدد(37)، المجلد(10)، 1999م

8. الزين، محمد شوقي: تأويلات وتفكيكات، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2002م.

9. سعد، حيدش: جان بودريار– الاتصال وإشكالية الواقع المفرط، مجلة إضافات (المجلة العربية لعلم الاجتماع) مركز دراسات الوحدة العربية، العددان(29– 30)، 2015م.

10. صفدي، مطاع: فجاءة الفلسفة، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، بيروت- باريس، العدد (158- 159)، 2012م.
11. عبد الحميد، شاكر: عصر الصورة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد(311)، 2005م.
12. كرانغ، مايك؛ وآخرون: الجغرافيات الافتراضية، تر: عدنان حسن، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2011م.
13. محمد، بدر الدين مصطفى أحمد: من المحاكاة إلى الواقع الفائق قراءة في فكر جان بودريار، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الكويت، 2016م.
14. نوريس، كريستوفر: نظرية لا نقدية: ما بعد الحداثة، المثقفون، وحرب الخليج، تر: عابد إسماعيل، ط1، دار الكنوز الأدبية، بيروت، 1999م.